النقـــــــل أو السمـــــاع

عرفنا سابقا أن العلماء قد اتفقوا على أن "السماع أو النقل" دليل من أدلّة النحو التي ترتكز عليها أصوله. والمقصود بالسماع : ما نقله العلماء من نصوص لغوية بشروطها المحدّدة. واعتبروها من أصول اللغة، ومن مصادرها الأساسة .

وفي مقدمة هذه النصوص القرآن الكريم بقراءاته المتواترة، ثم الحديث الشريف، وكلام العرب من شعر ونثر. ولكن ما موقفُ العلماء من هذه النصوصِ؟ وهل هي على صعيد واحد؟

إنَّ لكل لغوي موقفا مبدئياً ينطلق منه ليتمكن من حصر المادة اللغوية، وتحديدها بدقة، وبمعنى آخر لابد له أن يختار ما يدرس، وأن يحدد غايته، ومنهجه في ذلك. وإذا كان اللساني في عصرنا الحاضر لا يفاضل بين نماذج اللغة، ومنطلقه المبدئي في دراسة اللغة هو اعتماد ما أدى وظيفة الإبلاغ والتواصل، فإن منطلق اللغوي قديما لم يكن كذلك .

لقد عُني باللغة العربية باعتبارها موضوعا للدرس اللغوي، لأنها لغة القرآن الكريم، ولغته هي الفضلى التي يجب أن تعتمد بين أفراد المجتمع الإسلامي الناشئ، وكذلك هي اللغة الموحِّدة لجميع المسلمين الذين يجب أن يتواصلوا بها، وبهذا المنطلق تزداد انتشارا على لسان أبنائها جيلا بعد جيل، وعلى لسان الداخلين في عقيدة الإسلام على مرّ العصور. وكان هدف العلماء القدماء يتمثل بالدرجة الأولى في :

1- المحافظة على قدرة المسلم في قراءة القرآن الكريم وفهمه، واستنباط الأحكام منه.
2- حماية لغة أفراد الأمة من اللحن، وحصانتهم منه؛ لأن تفشي اللحن من شأنه أن يقيم حاجزا بين اللغة الموحدة وبين ما يتفرع عنها من لهجات، وهذا يؤدي بدوره إلى انقسام الأمة الواحدة.
3- حماية العربية من لغات الأمم الأخرى التي دخل أهلها في الإسلام أو مما يمكن أن يجاورها أو يتفاعل معها.

وفي هذا الشأن يقول أبو بكر الزبيدي (379 هـ): « ولم تزل الأئمة من الصحابة الراشدين، ومن تلاهم من التابعين يحضّون عل تعلّم العربية وحفظها، والرعاية لمعانيها، إذ هي من الدين بالمكان المعلوم؛ فبِها أَنزلَ الله كتابه المهيمن على سائر كتبه، وبها بلّغ رسوله عليه السلام طاعتَه، وشرائعَ أمره ونهيه»[1].

وإذا كان علماء العربية قد انطلقوا من معيارية لغوية ترجع إلى مستوى راق، اصطلحوا على تسميته باللغة الفصحى، فما هي إذن هذه الفصحى؟ وما هي شروطهم فيها؟ ومعايير رفضهم لغيرها؟.

اتفقوا على أن لغة القرآن هي الأرقى والأسمى، وعليها يقاس كل كلام مهما يكن قائله، فان وافقه فهو الفصيح، وإن خالفه فهو دون ذلك . لا يرقى إلى درجة القبول في التعليم ولا في الخطاب الرسمي، وعدوه من اللغات واللهجات المرغوب عنها. إذن القرآن الكريم حجة، وقراءاته كذلك إذا توافرت فيها شروط ثلاثة:

1- صحة السند عن الرسول (صلى الله عليه وسلم).
2- موافقة الرسم العثماني.
3- موافقة اللغة العربية ولو بوجه من الوجوه.

---

[1] طبقات النحويين واللغويين، ص12.

كما اشترطوا في النقل أو في السماع ثلاثة شروط على الإجمال، هي:

1- الفصاحة.

2- السند.

3- التواتر.

قال ابن الأنباري: « النقل هو الكلام العربي الفصيح، المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حد القلة إلى حد الكثرة »[2]. وما لم يتوافر فيه هذه الشروط، فمختلف فيه.

غير أن هذه الشروط لم يصرح بها النحاة القدماء، وإنما استنتجها المتأخرون من سيرة العلماء، ومواقفهم المنهجية والعلمية، ومن رحلاتهم إلى البوادي، وتنقلاتهم بين القبائل، ومشافهتهم للأعرابِ، أهل اللغة.

---

[2] الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة ، ص 81.